المبحث الثاني

نشاة علم الكلام وتاريخه وأهم عوامل نشاته

أولاً: نشأة علم الكلام وتاريخه.

ثانيًا: عوامل نشأة علم الكلام.

١ – العوامل الداخلية.

٢– العوامل الخارجية

obeikandl.com

المبحث الثاني
نشأة علم الكلام وتاريخه وأهم عوامل نشأته

أولاً: نشأة علم الكلام وتاريخه:

نشأ هذا العلم في العصر الأموي، ففيه ظهرت أهم الفرق الكلامية خاصة المعتزلة. وفي ذلك يقول الدكتور مصطفى عبد الرازق: (إنه في هذا العصر -أي العصر الأموي- ظهر الخلاف بين الفرق، واعتمد هذا النزاع على كل وسائل الدفاع من جدل يقوم على أدلة نقلية وعقلية، ثم تولدت مسائل اعتقادية كانت موضع تجادل وتنازع، وافترق المسلمون فيها فرقًا، فظهر علم الكلام على أيدي هذه الفِرق، خصوصًا المعتزلة[1].

فالمعتزلة هم أصحاب هذا العلم. يقول صاحب مصباح السعادة ومصباح السيادة: إن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة. وقد ثبت في التواريخ الصحاح أن إحياء طريقة السنة والجماعة كان في حدود الثلاثمائة من الهجرة فيكون علم الكلام بأيدي المعتزلة مائتي سنة، ما بين المائة والثلاثمائة[2].

وهذا يعني أن علم الكلام بدأ معتزليًا فالمعتزلة هم الواضعون الحقيقيون لعلم الكلام، ولا تكاد توجد فكرة هامة فيه إلى ولها أصل لديهم[3].

---

(١) مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩م، القاهرة، ص٢٨٧.

(٢) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، جـ٢ ص١٤٨.

(٣) إبراهيم مدكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ط دار المعارف القاهرة، جـ٢ ص٣٦.

ومنذ بداية القرن الرابع الهجري بدأ عصر الأشاعرة بقوة على يد إمامهم أبي الحسن الأشعري، فما أن بدأ القرن الرابع الهجري حتى بدأ طـــور جديد من أطوار علم الكلام، يتمثل في ظهور الإمام أبي الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـــ) وقد تتلمذ الأشعري على يد أحد شيوخ معـــتزلة البصرة، وهو محمد بن عبد الوهاب الجبائي، وقد أدى تعمق الإمام الأشعري في مذهب الاعتزال إلى معرفته بخباياه وموطن الضعف فـــيه، نتـــيجة إسراف المعتزلة في التأويل العقلي، فجاء الأشعري بمنهج وسط، فلا هو أهمل العقل، ولا هو عطل النص، وإنما ردَّ للنص منزلته اللائقة به، وجعل للعقل وظيفة هي إدراك النص وفهمه[١].

ثانيًا: عوامل نشأة علم الكلام:

يمكننا أن نقول إن هناك عوامل داخلية، وعوامل خارجية لنشأة علم الكلام، وإن كان هناك من يقصر عوامل نشأته على عوامل داخلية فقط، ومن يقصر نشأته على عوامل خارجية فقط، ولكننا نرى أنه من الصـــعوبة بمكان القول بعوامل داخلية ذاتية فقط، أو عوامل خارجية فقط إن العاملين متداخلان متلازمان.

١- العوامل الداخلية:

المحكم والمتشابه في كتاب الله العزيز:

يقول تعالى: ﴿كتابٌ أحكمت آياته﴾ [هود:١].

يقـــول الفخر الرازي: معنى أن القرآن الكريم كله محكمًا أي أن ألفاظه ومعانيه متقنة، وأن المعاني المرادة بألفاظه ظاهرة بينة لا خلل فيها ولا اختلاف[٢].

---

(١) عبد الحميد علي، علم التوحيد عند خلص المتكلمين، نشر دار المنار، القاهرة، ١٤٠٧ هـــ، ص٣٥، وما بعدها.

(٢) انظر، الرازي، تأسيس التقديس، ص٢٣٠.

ومعنى كونه متشابهًا: «أي يشبه بعضه بعضًا في الصحة والفصاحة والحسن، والبلاغة، ويصدق بعضه بعضًا».

يقول تعالى: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني**﴾ [الزمر:٢٣]. وهذا هو ما يسمى بالإحكام العام والتشابه العام، أمّا الإحكام الخاص والتشابه الخاص فيظهر في قوله تعالى: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منهُ آياتٌ محكمات هُنَّ أمُّ الكتاب وأخر متشابهات**﴾ [آل عمران: ٧]، والإحكام الخاص والتشابه الخاص هو الذي اختلف العلماء في تحديد مقصوده، لكن معظم العلماء والفقهاء يرونَ أن المحكم هو ما وضح بيانه، والمتشابه هو الذي احتاج إلى بيان وتوضيح لأن تأويله يحتمل أوجهًا. يقول الإمام أحمد بن حنبل: «المحكم: الذي ليس فيه اختلاف، والمتشابه: الذي يكون في موضع كذا وفي موضع كذا»[(١)].

ويرى بعض العلماء أن المحكم، ما عرف المفسرونَ والعلماء تفسيره، والمتشابه كل ما لم يعلمه العلماء، واستأثرَ الله بعلمه مثل الحروف المقطعة في أوائل بعض سور القرآن الكريم، مثل "ألم" [أول البقرة]، "ألر" [أول الحجر].

وقد قال النحاس: أحسنُ ما قيل في المحكمات والمتشابهات أن المحكمات ما كان قائمًا بنفسه، لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره، نحو: ﴿**ولم يكن له كفوًا أحد**﴾ [الصمد:٤]، والمتشابهات نحو: ﴿**إن الله يغفرُ الذنوب جميعًا**﴾ [الزمر:٥٣].

---

(١) أبي يعلى، العدة في أصول الفقه، تحقيق الدكتور أحمد مباركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ، جـ٢ ص٦٨٥.

والحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم كما يقول ابن الجوزي: لقد جعل الله سبحانه وتعالى بعض الآيات مما يتشابه على كثير من الناس، ابتلاء وامتحانًا، فالمؤمن الراسخ الإيمان يزداد إيمانًا به لأنه يعلم أن كلام الله تعالى لا تناقض فيه ولا اختلاف، وأمّا الزائغ فإنه يكون فتنة له، فيتتبع المتشابه من الآيات لمعارضة المحكمات، وإثارة الشبهات وإبطال الأحكام والعقائد المسلمات[١].

ويرى بعض العلماء أن صفات الله تعالى من المتشابه من ذلك ابن قدامة الحنبلي حيث يقول: «إن المتشابه ما ورد في صفات الله سبحانه، مما يجب الإيمان به ويحرم التعرض لتأويله كقوله تعالى: ﴿**بل يداهُ مبسوطتان**﴾[المائدة:٦٤]، ونحوه. فقد اتفق السلف على الإقرار به، وإمراره على وجهه، وترك تأويله»[٢].

ويقول العلامة مرعي الكرمي المقدسي الحنبلي أيضًا: إن من المتشابهات آيات الصفات التي التأويل فيها بعيد، فلا تؤول ولا تفسر، وجمهور أهل السنة، منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى[٣]، فهو من الذين يرونَ تفويض تأويل آيات الصفات إلى الله سبحانه وتعالى.

والحقيقة أن معظم الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يعرفون تأويل آيات الصفات، ولم يمرروها أو يعتبروها من المتشابه.

---

(١) انظر ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، طبعة المكتب الإسلامي، جـ١ ص٥٦.

(٢) موفق الدين ابن قدامة، روضة الناظر وجنة المناظر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ، ص٦٤.

(٣) أقاويل الثقات، ص٦٠.

يقـــول في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: من قال عن جبريل عليه السلام، ومحمد ﷺ وعن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين والجماعة أنهم كانوا لا يعرفونَ شيئًا عن معاني هذه الآيات، بل استأثر الله بعـــلم معناها، كما استأثرَ بعلم وقت الساعة، وإنما كانوا يقرءونَ ألفاظًا لا يفهمونَ لها معنى، كما يقرأ الإنسان كلامًا لا يفهمُ منه شيئًا، فقد كذب على القوم[1].

ولعل أبرز العوامل الداخلية لنشأة علم الكلام ترجع إلى وجود المتشـــابه والمحكم في القرآن الكريم ذلك لأن المتشابه يدعو إلى النظر، والمحكم يعصم عن الخطأ، أو يرد إلى الصواب. والقرآن الكريم لا يعوق أبـــدًا النظر العقلي. وإن وجود المتشابه في القرآن بالذات –كان سببًا رئيسيا وكان من أبرز العوامل الداخلية لنشأة علم الكلام.

يقول صاحب الكشاف الإمام الزمخشري المعتزلي في تفسيره للآية الكـــريمة الخاصـــة بالمحكم والمتشابه وهو قول الله تعالى في سورة آل عمـــران: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنَّ أم الكتاب وأخر متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعونَ ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخونَ في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب**﴾ [آل عمران: ٧].

يقـــول الزمخشـــري: لو كان كله محكمًا لتعلق الناس به لسهولة مـــأخذه ولأعرضـــوا عما يحتاجونَ فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاســـتدلال ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به. ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مجلد ١٣، ص٢٩٤.

ولما فيه تقادح العلماء واتباعهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله.

ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ففكر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه للمحكم ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه.

ولقد كان وجود المتشابه في القرآن الكريم عاملاً حاسمًا في نشأة علم الكلام خصوصًا بعد بروز كثير من القضايا اللغوية والفقهية مما أدى إلى اختلاف العلماء في فهم النص بعد أن عرفوا العلوم اللغوية والبيانية ومعرفتهم بالصرف والحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والمطلق والمقيد.

والحقيقة أن معظم العلوم كانت في شرف تجلية معاني ومرامي القرآن الكريم، فعلم الفقه وأصوله: كان وسيلة إلى الكشف عن أحكام القرآن وتشريعاته وعلم النحو والصرف، لضبط ألفاظه وفهم معانيه، وعلم الكلام وسيلة إلى تجلية عقائده وتأييدها بالبراهين الحقة والحجج الواضحة، وعلوم البلاغة للكشف عن إعجاز القرآن وبلاغته وروعته. وهكذا كل العلوم كانت في خدمة كتاب الله العزيز[1].

---

(١) العلوم التي يحتاج إليها كل من يتصدى للتفسير حتى لا يقول على الله بغير علم هي علم اللغة والنحو والصرف والاشتقاق اللغوي وعلوم البلاغة: المعنى والبيان والبديع، وعلم الكلام حتى يستطيع من يقوم بالتفسير أن يستدل بعلم الكلام على ما يجب في حق الله تعالى، وما يجوز وما يستحيل. وما إلى ذلك من نظرة دقيقة تتفق وأصول الدين.

وعـــلم أصـــول الفقه، فيه يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والأمر والنهي.

وعـــلم أســـباب التنزيل وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم الحديث ثم يكون على موهبة يورثهـــا الله عـــباده العلماء الأتقياء **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾** . وعلى المفسر عدم الخـــوض فيما استأثر الله بعلمه فليس له مثلاً أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعـــالى ســـرًا مـــن أسراره وحجة على عباده. وعليه أن يتجنب التفسير بهواه، أو أن يـــرجح باستحســـانه وعليه أن يتجنب التفسير المقرر لمذهبه: بأن يجعلَ المذهب أصلاً والتفســـير تابعًا فيحتالُ في التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته ويرده إلى مذهبه بأي طريق ممكـــن، وإن كـــان غاية في البعد والغرابة وقد ضمت المكتبة الإسلامية بعض كتب التفســـير بالـــرأي المذمـــوم، وهـــي كتب جرى التفسير فيها على النزعات المذهبية وأغـــراض أصحابها العقدية، وقد حاول بعضهم لوي النصوص وإخضاعها لهواهُ ومن هذه التفاسير تفاسير الأباضية.

التفســـير المســـمى هميان الزاد إلى دار المعاد: لمحمد بن يوسف أطفيش الأباضي المتوفى سنة ١٣٣٢هـــ.

تفسير هود بن محكم الهواري الأباضي من علماء القرن الثالث الهجري.

ومن هذه التفاسير تفاسير الشيعة الإمامية الإثنى عشرية.

التفســـير المســـمى "بمجمع البيان لعلوم القرآن" لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، المـــتوفى ســـنة ٥٣٨هـــ، ومع ذلك فهو أكثر كتب الشيعة اعتدالاً وبعدًا عن الهوى والغرض.

وأيضًـــا مـــن تفاسيرهم كتاب الصافي في تفسير القرآن الكريم لملا محسن الكاشي من علماء القرن الحادي عشر الهجري.

ومـــن تفاســـير المعـــتزلة الشـــهيرة تفسير القاضي عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـــ المسمي (تنزيه القرآن عن المطاعن).

وفي مسألة التفسير بالرأي اختلف العلماء في جواز التفسير بالرأي[1]،

وتفسير الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ المسمى الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

لكن من أهم كتب التفسير بالرأي الجائز المحمود.

تفسير الفخر الرازي المتوفى ٦٠٥هـ المسمى مفاتيح الغيب.

وتفسير القاضي البيضاوي المتوفى سنة ٦٩١هـ المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

وتفسير أبي البركات النسفي المتوفى ٧٠١هـ المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل.

وتفسير أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ المسمى (البحر المحيط).

وتفسير شهاب الدين الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ المسمى (روح المعاني).

(١) فمن العلماء من لم يجوز التفسير بالرأي مستندين على أن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم منهي عنه، فالتفسير بالرأي منهي عنه عندهم، قالوا: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ فقد أضاف البيان إليه فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

قالوا: ورد في حديث رواهُ الترمذي مرفوعًا وحسنه:«**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» رواهُ الترمذي في أبواب التفسير جـ٢ ص١٥٧.

وورد في حديث رواه الترمذي وأبو داود عن جُندب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**» الترمذي المرجع السابق.

قالوا: ورد عن السلف من الصاحبة والتابعين من الآثار ما يدل على انهم كانوا يعظمونَ تفسير القرآن ويتحرجون من القول فيه بآرائهم.

أمَّا أدلة القائلين بجواز التفسير بالرأي فقد قالوا:

ورد في القرآن الكريم نصوص كثيرة تدل على جواز التفسير بالرأي لمن هم أهل لذلك، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرونَ القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ [محمد:٢٤].

ووجـــود المتشابه في القرآن فتح مجالاً للتأويل والرأي والجدل كان عاملاً

قـــالوا: لـــو كـــان التفسير بالرأي غير جائز ما كان الاجتهاد جائزًا ولتعطل كثير من الأحكـــام، وهـــذا باطل بين البطلان، لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحًا إلى اليوم، والمجتهد مأجور.

والنبي ﷺ لم يفسر لنا جميع آيات القرآن، ولم يستنبط لنا جميع أحكامه.

قـــالوا: إن الـــنبي ﷺ دعا لابن عباس -رضي الله عنهما- بقوله:«اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فلو كان التأويل مقصورًا على السماع والنقل كالتنزيل ما كان هناك فـــائدة لتخصـــيص ابـــن عباس بهذا الدعاء، فدل ذلك على أن التأويل الذي دعا به الرســـول ﷺ لابـــن عـــباس أمـــر آخر وراء السماع والنقل، وهو التفسير بالرأي والاجتهاد.

وكمـــا يقول مولانا الشيخ الذهبي -رحمه الله- إننا لو رجعنا إلى المتشددين في التفسير بالـــرأي، ووقفـــنا على ما شرطوه من شروط لابد منها لمن يتكلم في التفسير برأيه، وحللـــنا أدلة الفريقين تحليلاً دقيقًا. لظهر لنا أن الخلاف لفظي لا حقيقي، وذلك أن الرأي قسمان:

قســـم جار على موافقة كلام العرب ومناحيهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومـــراعاة ســـائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لا شك فيه، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي، وقسم غير جار على قوانين العربية ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشرائط التفسير، وهذا هو كلام عمر -رضي الله عنه- إذ يقول: "إنما أخـــاف عليكم رجلين: رجل يتأول القرآن على غير تأويله، ورجل ينافس الملك على أخـــيه". فهذا ونحوهُ وارد في حق من لا يراعي في تفسير القرآن قوانين اللغة، ولا أدلة الشـــريعة، جاعلاً هواهُ رائده، ومذهبه قائده، وهذا هو الذي يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأي. علم التفسير للدكتور محمد حسين الذهبي -رحمه الله- من ص٤٨-٥٢ باختصار.

هامًا في نشأة علم الكلام كما أكدنا على هذه الحقيقة من قبل.

ويركز ابن خلدون في مقدمته على أن وجود المتشابه في القرآن كان سببًا رئيسيًا لنشأة علم الكلام فقد وقع بعض المسلمين في التشبيه والتجسيم[1].

فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام.. وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة، هي سلوب (أي سالبة عن الله التشبيه بالخلق) كلها وصريحة في بابها، فوجب الإيمان بها، ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها.

ثم وردت في القرآن الكريم آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات.

فأمّا السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فأمنوا بها و لم يتعرضوا لمعانيها ببحث ولا تأويل. وهذا معنى قول الكثير منهم: اقرؤها كما جاءت، أي آمنوا بأنها من عند الله، ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء، فيجب الوقوف والإذعان له.

وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه.

والحقيقة أننا نميلُ إلى أهمية العوامل الداخلية التلقائية في نشأة علم الكلام. فقد وجد علماء الإسلام في القرآن الكريم الحلول لقضايا

---

(١) المقدمة طبعة الشعب ص٤٢٨، ٤٢٧.

العقـــيدة والثواب والعقاب والقضاء والقدر وهي مواد أصيلة وأساسية في صلب علم الكلام لهذا فقد كان القرآن الكريم عاملاً هامًا في نشأة هـــذا العـــلم الإســـلامي، ففيه كل ما يتعلق بأصول الدين والتوحيد ومسائل الجبر والاختيار والنبوة وحكم مرتكب الكبيرة وغير ذلك من المسائل الكلامية.

كمـــا تعرض القرآن الكريم لقضايا كبرى تتصل بنشأة الإنسان، ونشأة الكون، وإن القرآن بحق «خاض مع من أدهشتهم جدة تعاليمه نقاشًا، قابل فيه الرأي بالرأي، والدليل بالدليل، وفي هذا الحجاج ثروة علمية تكررت في مواضع منه بأسلوب لا يمل سماعه وترداده»[1].

ويقول الدكتور يحيى هاشم: «لقد تصدى المسلمون لفهم كتابهم المـــنزل فهمًا له في ذاته: في قضية وجوده، قديمًا أو محدثًا. وفيما يضمه مـــن آيـــات أتنفتح للفهم بأحكامها أو تنغلق عليهم بمتشابهها، وفي ما تضمه الآيات من جوانب وأعماق: ظاهرًا وباطنًا تفسيرًا وتأويلاً، وفي علاقـــة القرآن وموقفه العام من التفكير في العقيدة. وفهمًا له فيما يدل علـــيه من مسائل العقيدة في الإلهيات والنبوات والسمعيات والكونيات والجدل مع أرباب المذاهب المختلفة».

ولقـــد كـــان تصدي المسلمين لهذا الفهم بأنواعه أمرًا نابعًا من صميم علاقتهم بالقرآن الكريم وانتمائهم إليه، وإيمانهم به... وفي بحث الباحثين للقرآن تعرفوا على موقفه من التفكير في العقيدة، فوجدوا منه تشـــجيعًا يدفعهـــم للنظر والاجتهاد المسترشد بهدى الله، ووجدوا في الآيـــات رؤوس مسائل، كما وجدوا فيها طريقة نظر، ووجدوا فيها قـــرارًا برأي أو انفتاحًا على بحث. ولقد تناولوهُ بالبحث في كل ذلك

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام، للدكتور دنيا -رحمه الله- ص٣٢٤.

آخذين بصريحه مجتهدين في مشابهه، مرتادين فيه إلى مواطن تبتعد عن أطره في بعض الأحيان[١].

وابن عساكر يروي عن الإمام القشيري قوله: ((والعجب ممن يقول ليس في القرآن الكريم علم الكلام، والآيات التي هي في الأحكام الشرعية نجدها محصورة والآيات المنبهة على الأصول نجدها توفي على ذلك وتربى بكثير))[٢].

والحقيقة أن القرآن الكريم قد وبخ بشدة كل من يعطل عقله ويقلد غيره في الباطل ويرث عقائد ضالة عن أسلافه وآبائه الأولين يقول تعالى: **﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾**.

والقرآن الكريم اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة. إلا أن الوارد في القرآن أوضحها وأقواها لينتفعَ بها الخاصة والعامة[٣].

ويقول الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني في كتابه علم الكلام وبعض مشكلاته[٤]. ((إن القرآن الكريم، إلى جانب احتوائه على العقائد الإسلامية، قد احتوى على ذكر العقائد المخالفة لها، وعلى الحجج الداحضة لها، فكان ذلك من العوامل الهامة التي أفضت بعض عقول المسلمين إلى البحث في العقائد. وكيفية الدفاع عنها ضد العقائد

---

(١) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام للدكتور يحيى هاشم ص٢٩٠، ٢٨٩ باختصار.

(٢) تبيين كذب المفتري، لابن عساكر ص٣٥٩.

(٣) أبجد العلوم، لصديق خان جـ٢ ص٦٣٠.

(٤) علم الكلام، للدكتور التفتازاني. ص٧، ٨.

المخالفة لها.

فمن الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر العقائد والمذاهب والأديان المخالفة للإسلام، قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا* إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد**﴾ [الحج:١٧].

وقوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمنَ بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم**﴾ [البقرة:٦٢]. ولقد رد القرآن على مخالفيه، فرد مثلاً على الدهرية الذين قالوا: ﴿**وما يهلكنا إلا الدهر**﴾ [الجاثية: ٢٤]، ورد على أولئك الذين ألهوا الكواكب وعبدوها كالصابئة، وذلك بمثل آية إبراهيم عليه السلام: ﴿**فلمَّا جن عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربي فلمَّا أفل قال لا أحب الآفلين**﴾ [الأنعام:١٦]. ورد على منكري النبوات بمثل قوله تعالى: ﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهُدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرًا رسولاً* قل لو كان في الأرض ملائكة يمشونَ مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً**﴾ [الإسراء: ٩٤،٩٥].

ورد على منكري البعث بمثل قوله تعالى: ﴿**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين**﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

والحقيقة أن القرآن الكريم قد تناول كما أشرنا من قبل سائر موضوعات علم الكلام.

ففي مجال الإلهيات مثلاً نجد آيات كثيرة في الدلالة على وجود الله سبحانه وتعالى مثل قوله تعالى: ﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾ [آل عمران:١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفعُ الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ [البقرة: ١٦٣،١٦٤].

ويقول تعالى: ﴿**أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾ [الطور: ٣٥] يقول الإسفراييني: (معناهُ أم خلقوا من غير خالق كأنه قال من غير شيء خلقهم لما تقرر من استحالة ثبوت ما ثبتَ بوصف.الخلق من غير خالق خلق، ولا صانع دبر وصنع، وأنت تعلم أيضًا أن خالق الخلق قديم، لأنه لو كان محدثًا لافتقرَ إلى محدث. وكان حكم الثاني والثالث وما انتهى إليه كذلك. وكان كل خالق يفتقر إلى خالق آخر لا إلى نهاية. وكان يستحيل وجود المخلوق والخالق جميعًا. لأن ما شرط وجوده ما لا نهاية له من الأعداد قبله لم يتقرر وجوده لاستحالة الفراغ عما لا نهاية له لتنتهي النوبة إلى ما بعد. وأصلُ هذه الدلالة في القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿**هو الأول والآخر والظاهرُ والباطن وهو بكل شيء عليم**﴾ [الحديد:٣].

فبين أنه كان قبل ما يشار إليه بأنه محدث، وقوله تعالى: ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ والقيوم مبالغة من القيام وهو الثبات والوجود، هذا دليل على اتصافه بالوجود في جميع الأحوال، وأنه لا يجوز وصفه بالعدم بحال وذلك حقيقة القدم. إن الخالق لشيء ثابت موجود لا يجوز وصفه بالعدم، لأن الخالق لا يكون خالقًا إلا بأن يكون قادرًا، ولا يكون قادرًا إلا والقدرة قائمة والمعدوم لا يقبل هذه الصفات ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿**فتبارك الله رب العالمين**﴾

[غافر:٦٤]. وذلك يوجب الثبات والقيام والوجود في جميع الأحوال من غير تغير ولا زوال[١].

ويقرر الإمام ابن تيمية -رحمه الله- أن طريقة الأنبياء صلوات الله عليهم في الاستدلال على الله سبحانه وتعالى كانت بذكر الآيات أولاً، والآيات هي ما يكون فيها الدليل مستلزمًا من المدلول، لا أمرًا كليًا، فإن استعملوا القياس فإنهم يستعملون قياس الأولى لا قياس الشمول[٢].

والحقيقة أن وجود الله أوضح من أن يبرهن عليه: (لكنه وجد في الأزمنة من ينكر وجود الصانع، وأن القرآن رد على هؤلاء في استفاضة وتنوع[٣]. لقد استدل القرآن على وجود الله تعالى كما رأينا بدليل الصنع وبدليل النظام أي الاستدلال بوجود العالم ونظامه وسير الكواكب والشموس وتعدد الموجودات وبمبدأ كل حادث لا بد له من محدث، ودليل العناية، وبالدليل المستند إلى فكرة الكمال وغير ذلك.

عن أبي الضحى قال: لما نزلت هذه الآية **﴿وإلهكم إله واحد﴾** عجب المشركون وقالوا: إن محمدًا يقول أن إلهكم إله واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله عز وجل: **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾** إلى قوله: **﴿لآيات لقوم يعقلون﴾** [٤].

---

(١) التبصير في الدين للإسفراييني، تحقيق كمال الحوت. طبع بيروت، ص١٥٤-١٥٦.

(٢) مختصر نصيحة أهل الإيمان للسيوطي ص٢٥٢.

(٣) التفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص٦٤.

(٤) البقرة: ١٦٣-١٦٤. أخرج الحديث البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الضحى.

يقول البيهقي في الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد[١]: «ذكر الله عز وجل خلق السماوات بما فيها من الشمس والقمر والنجوم المسخرات، وذكر خلق الأرض بما فيها من البحار والأنهار والجبال والمعادن، وذكر اختلاف الليل والنهار وأخذ أحدهما من الآخر، وذكر الفلك التي تجري في البحر بما ينفعُ الناس وذكر ما أنزل الله تعالى من السماء من المطر الذي فيه حياة البلاد، وبه وبما وضع الله في الليل والنهار من تعاقب الحر والبرد يتم رزق العباد والبهائم والدواب، وذكر ما بث في الأرض من كل دابة مختلفة الصور والأجساد، مختلفة الألسنة والألوان وذكر تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وما فيهما من منافع الحيوانات وما في جميع ذلك من الآيات البينات لقوم يعقلون، ثم أمر في آية أخرى بالنظر فيهما فقال لنبيه ﷺ: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾ [٢] يعني والله أعلم من الآيات الواضحات، والدلالات النيرات، وهذا لأنك إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك واعتبرتها بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ساكنه من آلة وعتاد فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مبسوطة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وضروب النبات مهيأة للمطاعم والملابس والمآرب وصنوف الحيوان مسخرة للمراكب، مستعملة في المرافق، والإنسان كالملك للبيت، المخول ما فيه، وفي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وإن له صانعًا حكيمًا تام القدرة بالغ الحكمة، وهذا

---

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للإمام الحافظ أبي بكر البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، ص٢١٣ وما بعدها.

(٢) يونس: ١٠١.

فيما قرأته من كتاب أبي سليمان الخطابي —رحمه الله—. قال الشيخ —رحمه الله—: ثم إن الله تعالى حضهم على النظر في ملكوت السماوات والأرض وغيرهما من خلقه في آية أخرى فقال: ﴿**أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون**﴾[1] يعني بالملكوت الآيات يقول: أو لم ينظروا فيها نظر تفكر وتدبر حتى يستدلوا بكونها محلاً للحوادث والتغييرات على أنها محدثات، وأن المحدث لا يستغني عن صانع يصنعه على هيئة لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات كما استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بمثل ذلك، فانقطع عنها كلها إلى رب هو خالقها ومنشئها فقال: ﴿**إني وجهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين**﴾[2].

وحثهم على النظر في أنفسهم والتفكر فيها فقال: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[3] يعني لما فيها من الإشارة إلى آثار الصنعة الموجودة في الإنسان من يدين يبطش بهما ورجلين يمشي عليهما وعين يبصر بها وأذن يسمعُ بها، ولسان يتكلمُ به، وأضراسٌ تحدث له عند غناه عن الرضاع، وحاجته إلى الغذاء يطحنُ بها الطعام، ومعدة أعدت لطبخ الغذاء، وكبد يسلك إليها صفوه، وعروق ومعابر تنفذ فيه إلى الأطراف، وأمعاء يرسب إليها ثقل الغذاء، ويبرز عن أسفل البدن، فيستدلُ بها على أن لها صانعًا حكيمًا عالمًا قديرًا.

أخبرنا أبو على الحسين بن محمد بن محمد بن علي المروذباري، أنا

---

(١) الأعراف: ١٨٥.

(٢) الأنعام: ٧٩.

(٣) الذاريات: ٢١.

إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا عباس بن محمد، ثنا عبيد الله بن موسى، ثنا عن أبي جريج، عن محمد بن المنكدر، عن عبد الله بن الزبير: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ قال: سبيل الخلاء والبول[1].

وأخبرنا يحيى بن إبراهيم، حدثني محمد بن محمد بن عبيد الله الأديب، ثنا محمود بن محمد، ثنا عبد الله بن الهيثم، ثنا الأصمعي، قال سمعتُ ابن السماك: يقال لرجل: تبارك من خلقك فجعلك تبصر بشحم وتسمعُ بعظم، وتتكلم بلحم. قلنا ثم إنا رأينا أشياء متضادة من شأنها التنافر والتباين والتفاسد مجموعة في بدن الإنسان وأبدان سائر الحيوان، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فقلنا: إن جامعًا جمعها وقهرها على الاجتماع وأقامها بلطفه، ولولا ذلك لتنافرت ولتفاسدت، ولو جاز أن تجتمع المتضادات المتنافرات وتتقاوم من غير جامع يجمعها لجاز أن يجمع الماء والنار ويتقاوما من ذاتهما من غير جامع يجمعهما ومقيم يقيمهما وهذا ما حل لا يتوهم، فثبتَ أن اجتماعها إنما كان بجامع قهرها على الاجتماع والالتئام وهو الله الواحد القهار، وقد حكي عن الشافعي —رحمه الله— أنه احتج بقريب من هذا المعنى حين سأله المريسي[2]. عن دلائل التوحيد في مجلس الرشيد، وقد بين الله تعالى في كتابه العزيز تحول أنفسنا من حالة إلى حالة وتغيرها، ليستدل بذلك على خالقها ومحولها فقال: ﴿ما لكم لا ترجونَ لله وقارًا* وقد خلقكم أطوارًا﴾ [3]. وقال: ﴿ولقد خلقنا

---

(١) أخرجه البيهقي في "الشعب" عن عبد الله بن الزبير، وأخرجهُ الخرائطي في مساوئ الأخلاق عن علي —رضي الله عنه—، الدر المنثور ٦:١١٤.

(٢) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي، معتزلي، متهم.

(٣) نوح: ١٤،١٣.

الإنسان من سلالة من طين* ثم جعلناهُ نطفة في قرار مكين* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناهُ خلقًا آخر فتبارك الله أحسنَ الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ [1]. فالإنسان إذا فكر في نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرفة. كان نطفة-ثم علقة ثم مضغة ثم لحمًا وعظمًا فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال، لأنه لا يقدرُ أن يحدث لنفسه في الحال الأكمل التي هي حال كمال عقله وبلوغ أشده عضوًا من الأعضاء ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، فيدله ذلك على أنه في حال نقصه أو ضعفه عن فعل ذلك أعجز، وقد يرى نفسه شابًا ثم كهلاً ثم شيخًا وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى الشيخوخة والهرم، ولا اختاره لنفسه، ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب، فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل هذه الأفعال بنفسه، إن لم يكن صانعًا صنعه وناقلاً نقله من حال إلى حال، ولولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر، ثم يعلم أنه لا يأتي الفعل المحكم المتقن، ولا يوجد الأمر والنهي ممن لا سمع ولا بصر ولا كلام، ولا حياة له ولا علم ولا قدرة ولا إرادة فيستدل بذلك على أن صانعه حي عالم قادر مريد سميع بصير، ثم يعلم استغناء المصنوع بصانع واحد، وعلو بعضهم على بعض وما يدخل من الفساد في الخلق أن لو كان معه آلهة فيستدل بذلك على أنه إله واحد لا شريك له، كما قال عز من قائل: **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون* عالم**

---

(١) المؤمنون: ١٢-١٥.

الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ [١] ثم يعلم أن صانع العالم لا يشبه شيئًا من العالم لأنه لو أشبه شيئًا من المحدثات بجهة من الجهات لأشبهه في الحدوث من تلك الجهة، ومحال أن يكون القديم محدثًا أو يكون قديمًا من جهة، حديثًا من جهة، ولأنه يستحيل أن يكون الفاعل يفعل مثله، كالشاتم لا يكون شتمًا وقد فعل الشتمُ، والكذاب لا يكون كذبًا وقد فعل الكذب ولأنه يستحيل أن يكون شيئان مثلين يفعل أحدهما صاحبه، لأنه ليس أحد المثلين أن يفعل صاحبه أولى من الآخر وإذا كان كذلك لم يكن لأحدهما على الآخر مزية يستحق لأجلها أن يكون محدثًا له، لأن هذا حكم المثلين فيما تماثلا فيه وإذا كان كذلك استحالَ أن يكون الباري سبحانه مشبهًا للأشياء فهو كما وصف نفسه: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [٢] وقال: ﴿قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد* ولم يكن له كفوًا أحد﴾ [٣].

حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أنا أبو عبد الله محمد ابن يعقوب الحافظ وأبو جعفر محمد بن صالح بن هانئ، قالا: ثنا الحسن بن الفضل، ثنا محمد بن سابق، ثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا: يا محمد صف لنا ربك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد﴾ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث وإن الله تبارك وتعالى لا يموتُ ولا يورث ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾ لم يكن له شبيه ولا عدل ﴿ليس كمثله شيء﴾.

---

(١) المؤمنون: ٩٢،٩١.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) الإخلاص: ١-٤.

أخبرنا أبو زكريا يحيى بن إبراهيم، أنا أبو الحسن الطرائفي، ثنا عثمان بن سعيد، ثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿**ولله المثلُ الأعلى**﴾[1] يقول: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ وفي قوله: ﴿**هل تعلمُ له سَمِيًّا**﴾[2] يقول: هل تعلمُ للرب مثلاً أو شبيهًا؟ قلنا: وقد سلك بعضُ مشايخنا رحمنا الله وإياهم في إثبات الصانع وحدث العالم طريق الاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة، لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحسّ لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها، فلما ثبتت النبوة صارت أصلاً في وجوب قبول ما دعا إليه النبي ﷺ.

مسائل كلامية في السنة المطهرة:

إذا كان القرآن الكريم قد حوى كثيرًا من الموضوعات ومسائل علم الكلام في رأي بعض المدافعين عن علم الكلام فإنهم يزعمونَ أيضًا أن السنة المطهرة كانت من العوامل الداخلية التي أسهمت في نشأة علم الكلام فهناك العديد من الأحاديث الصحيحة والحسنة حول مسائل كلامية متعددة. ثم هناك حديث الفرق الشهير وهو الذي قال عنه الترمذي أنه حديث حسن غريب.

روي عن أبي عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنعُ ذلك، وأن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم**

---

(١) النحل: ٦٠.

(٢) مريم: ٦٥.

في النار إلا ملة واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ **قال: ما أنا عليه وأصحابي»**[١].

وروي عن أبي هريرة —رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: **«تفرق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترقُ أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**[٢].

ومن الأحاديث الصحيحة والحسنة التي نجد فيها مادة كلامية في الإلهيات ما ذكره الإمام البغوي في مصابيح السنة حيث ذكر حديثًا من الصحاح، بسنده عن أبي هريرة —رضي الله عنه– قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي فسألوه: إنا نجدُ في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: أوجدتموهُ؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان، وقال: يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك، فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته، وقال: لا يزالُ الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خالق للخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل آمنتُ بالله ورسوله[٣].

وروى البخاري في صحيحه في باب لا عدوى من كتاب الطب عن الزهري قال أخبرني سنان بن سنان الدؤلي أن أبا هريرة —رضي الله

---

(١) قال الترمذي هذا حديث حسن غريب، لا يعرف إلا من الوجه الذي جاء به سنده.

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص١٨، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. ومن العلماء من حكم بضعف حديث الفرق كابن حزم الذي ضعف رواة الحديث.

ومنهم من أخذ به كالبغدادي في الفرق بين الفرق والإيجي في العقائد العضدية، والإسفراييني في التبصير في الدين، وذلك لعدد طرقه وتعدد الصحابة الذين رووه.

(٣) مصابيح السنة للبغوي جـ١ ص٦.

عنه- قال أن رسول الله ﷺ قال: لا عدوى. فقام أعرابي فقال: أرأيت الإبل تكون في الرمال أمثال الظباء فيأتيهم البعم الأجرب، فتجرب؟ فقال النبي ﷺ : فمن أعدى الأول؟

ويرى أبو الحسن الأشعري في رد رسول الله ﷺ (فمن أعدى الأول؟ معنى ضرورة انتهاء الحوادث إلى أول، وذلك عند الإمام الأشعري مثال من أمثلة وجود أصول المسائل الكلامية في السنة المطهرة في رسالة استحسان الخوض في علم الكلام[1].

وهناك العديد من الأمثلة الحديثية تعد أصول مسائل كلامية فيذكر مثلاً الإمام البغوي من الأحاديث الصحاح في رؤية الله في الجنة قول الرسول ﷺ: «**إنكم سترون ربكم عيانًا**»، وقول رسول الله ﷺ أيضًا: «**إنكم سترون ربكم كما ترونَ هذا القمرَ لا تضامونَ في رؤياكم**»[2] ومن الصحيح في مسألة القدر ما يرويه الإمام البغوي: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا ونوع العمل؟ قال: **لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[3].

وذَكَرَ الإسفراييني عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ

---

(١) رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام للأشعري ص٩١، ضمن ذيل اللمع للأشعري.

(٢) مصابيح السنة للبغوي جـ٢ ص٢٥٣، والحديثان رواهما الإمام البخاري -رضي الله عنه-.

(٣) ذكره الإسفراييني، في التبصير في الدين، ص٥٨.

أنه قال: «**الإيمان بالقدر يذهب الغم**»[١].

والحقيقة أننا نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحث العقول إلى النظر والتفكر والتعقل فلما انتقلَ رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ولحق به صاحباهُ الشيخان أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- طرأت على الناس مشكلات تستدعي النظر والتفكر مثل مسألة الخلافة ومن أحق بها أهم آل بيت رسول الله أم سواهم خصوصًا بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ومطالبة ذويه بدمه، ثم نشوب الحرب بين سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والسيدة عائشة -رضي الله عنها-، ثم بين سيدنا علي ومعاوية وتبع ذلك انشقاق جماعة علي بعد مسألة التحكيم المشهورة مما أدى إلى تكوين الأحزاب والفرق الإسلامية كالخوارج والشيعة والمرجئة وغيرهم. وكان لكل فرقة وحزب مذهبه الكلامي الخاص به.

الإمامة والخلافات السياسية:

من أبرز الأسباب الداخلية التي ساعدت على بزوغ علم الكلام مسألة الإمامة[٢]. والخلافات السياسية التي ارتبطت بعقائد الدين نتيجة

---

(١) الإسفراييني، التبصير في الدين، ص٥٨.

(٢) يقول الشهرستاني في الملل والنحل: "الاختلاف في الإمامة على وجهين، أحدهما: القولُ بأن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار. والثاني: القول بأن الإمامة تثبت بالنص والتعيين. فمن قال أن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار قال بإمامة كل من اتفقت عليه الأمة أو جماعة معتبرة من الأمة إمَّا مطلقًا وإمَّا بشرط أن يكون قرشيًا على مذهب قوم وبشرط أن يكون هاشميًا على مذهب قوم إلى شرائط أخر.

لـــتكفير إحدى الفرق فرقة أخرى أو الفرق الأخرى من المسلمين. أو تكفـــير خلـــيفة من الخلفاء أو حاكم من الحكام نتيجة لإيمانهم بعقائد خاصة بهم.

فالخوارج مثلاً كما نعلم كانت تجمع على تكفير الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كما كانوا يرون تكفير مرتكب الكبيرة.

وكان الروافض من الشيعة يرون إكفار من ترك الائتمام بالإمام عـــلي كـــرم الله وجهه وكل من حاربه فالروافض من الشيعة اختلفوا فـــيمن حـــارب الإمام علي وهم فرقتان: فالفرقة الأولى منهم يقولونَ بإكفار من حارب عليًا وتضليله، ويشهدون بذلك على طلحة والزبير ومعاويـــة بـــن أبي سفيان، وكذلك يقولون فيمن ترك الائتمام به بعد الرسول ﷺ . والفرقة الثانية منهم: يزعمونَ أن من حاربَ عليًا عنادًا للرسول ﷺ، وردًا عليه، فهم كفار. وكذلك يقولون في ترك أصحاب رســـول الله ﷺ الائـــتمام بعلي بعده: أنهم إن كانوا الائتمام به عنادًا للرســـول وردًا عليه فهم كفار، وإن كانوا تركوا ذلك لا على طريق

ومـــن قـــال بـــالأول فقد قال بإمامة الخلفاء ومعاوية وأولاده وبعدهم بخلافة مروان وأولاده، والخـــوارج اجـــتمعوا في كـــل زمان على واحد منهم بشرط أن يبقى على مقتضـــى اعـــتقادهم ويجري على سلم العدل في معاملاتهم وإلا خذلوهُ وخلعوهُ وربما قتلوه.

ومـــن قـــالوا أن الإمامـــة تثبت بالنص اختلفوا بعد علي -رضي الله عنه- فيمن هو منصوص عليه بعده.

الملل والنحل ص٢٩، ٣٠ للشهرستاني.

العناد والتكذيب للرسول ﷺ والرد عليه فسقوا ولم يكفروا[١].

ولقد كان مقتل الإمام علي ثم مقتل الإمام الحسين -رضي الله عنهما- سببًا لانتشار مذهب التشيع لآل البيت نتيجة ما استشعره بعض المسلمين من ندم لقتل -رضي الله عنه- الحسين قتلة خبيثة وحمل رأسه إلى عبيد الله بن زياد، وكذا حملت سبعونَ رأسًا إليه من رؤوس آل البيت -رضي الله عنهم أجمعين-.

ومن العجيب أنه في الموقعة التي قتل فها سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين -رضي الله عنه- حمل عمرو بن الحجاج أمير ميمنة جيش ابن زياد على جماعة الحسين وهو يقول للناس معه: قاتلوا من مرق من الدين، وفارق الجماعة.

فيرد عليه الحسين: ويحك يا حجاج أعَلَيَّ تحرض الناس؟ أنحنُ مرقنا من الدين وأنت تقيمُ عليه؟ ستعلمونَ إذا فارقت أرواحنا أجسادنا من أولى بصلي النار[٢].

وفي تحقيقه على كتاب تبيين كذب المفتري لابن عساكر. يرى الكوثري «أن الخوارج والشيعة نشأوا بسبب عاطفة سياسية لا دخل للعلم فيها، وأن المرجئة نشأت وليدة نوع من البحث العلمي، وأن الجبرية نتجت عن بحث غير علمي داعية إلى الخمود، وإن القدرية نشأت نتيجة بحث علمي، وأن المعتزلة نتجت عن بحث علمي وشره عقلي»[٣].

---

(١) مقالات الأشعري جـ١ ص١٢٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٨ ص١٨٢.

(٣) تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري لابن عساكر تحقيق الكوثري، ص١٩،١٨.

وكان لمعظم الفرق الإسلامية موقفها من الحياة السياسية التي تعاصرها فالمعتزلة مثلاً كانوا متهمين بالوقوف موقف الكراهية من الحكم الأموي، وكانوا مجتمعين على البراءة من عمرو ومعاوية ومن كان في شيعتهما[١].

وكان واصل متوقفًا في أمر عثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة، ويقول بتفسيق أحد الفريقين لا على التعيين.

ويقال أحيانًا أن أسلاف المعتزلة الكلاميين كانوا من معتزلة الصراع بين علي ومعاوية من أمثال، سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد بن حارثة والأحنف بن قيس.

وإننا نلاحظ أنه في العصر العباسي الأول ارتفعت مكانة المعتزلة وكان لهم تأثيرهم على السياسة والحكم وارتفع رأس المعتزلة في حكم أبي جعفر المنصور لعلاقة عمرو بن عبيد الوثيقة به وفي عهد الرشيد كان لبعضهم كثير من الاحترام وفرص لتقلد المناصب، مثل ابن السماك محمد بن صبيح الكوفي (ت ١٨٣هـ)، ويحيى بن حمزة الحضرمي (ت ٨٣هـ)، ويحيى بن المبارك البزيدي (ت ٢٠٢هـ)[٢].

ويقول الدكتور التفتازاني إن الخلافات السياسية الحادثة في صدر الإسلام قد ارتبطت بالدين وعقائده ارتباطًا وثيقًا، وترتب عليها انقسام المسلمين إلى فرق متباينة خائضة في البحث في العقائد على نحو جدلي خلافي فكان هذا من أهم العوامل التي عجلت بظهور علم العقائد، أو علم الكلام عند المسلمين[٣].

---

(١) الانتصار للخياط ص٧٣.

(٢) المعتزلة لزهدي جار الله، ص١٥٨.

(٣) علم الكلام، للدكتور التفتازاني، ص١٩.

لكن ما الذي جعل تلك الخلافات السياسية بين المسلمين مرتبطة عندهم بالعقائد؟.

يجيب عن ذلك الدكتور التفتازاني بوضوح تام فيقول: إن الخلاف السياسي بين المسلمين ما كان ليبتعد عن الدين، لأن لكل فريق من الفرق المتنازعة كان يلجأ إلى نصوص الدين دائمًا ليؤيد موقفه وهذا يدعوهُ إلى الاجتهاد في فهم النصوص أو تأويلها تأويلاً خاصًا، عندئذ صار كل حزب سياسي فرقة دينية لها معتقداتها، كالشيعة والخوارج والمرجئة ثم عمد أصحابُ كل فرقة بعد ذلك إلى اصطناع شعراء وعلماء تلك الفرق الأحاديث ليدعموا بها معتقداتهم، فصار الأمر متعلقًا بالدين ومسائله الاعتقادية تعلقًا كبيرًا[1].

هكذا كانت الحياة السياسية سببًا داخليًا هامًا لإقامة مثل هذا العلم الذي يساعد العالم فيه على معرفة الحجج الصحيحة من الحجج الفاسدة وكيف يدعم وجهة نظره عن طريق اجتهاده في فهم النصوص وتأويلها.

٢- العوامل الخارجية لنشأة علم الكلام

لا شك أن تأثيرات الحضارات المختلفة على العقلية الإسلامية والعربية لعبت دورها في نشأة علم الكلام.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر التزاوج بين الحضارات المختلفة والاقتباس والنقل وتأثير الثقافات على العقلية الإسلامية المتفتحة والمتسامحة ونتيجة لما تميز به الإسلام من دعوته إلى حرية العقيدة والفكر والكلمة.

---

(١) علم الكلام للتفتازاني، ص١٨.

ومنذ الفتح الإسلامي كانت شروط الفتح الإسلامي تسمح ببقاء بـــذور تلـــك الحضارات عند طوائف كبيرة من الأهالي الذين واصلوا التمتع بعاداتهم وقوانينهم ولغاتهم على شريطة أن يعطوا الجزية، وكان طبيعيًا أن تتأسس الروابط والعلاقات بين الفاتحين وأهل البلاد في وقت مـــبكر سواء أكانَ ذلك بسبب الجوار أم بسبب اعتناق الإسلام، وقد أخـــذ ذلك المظهر يزداد باضطراد لما يجلبه من المزايا المادية والأدبية بيد أن العلاقـــات المتبادلة لم تتوثق أواصرها إلا في ظل العباسيين الأوَّلين، كما أنه في نفس الوقت الذي أتيحت فيه حرية واسعة للأفكار كانت هناك حماية رسمية تشجع هذه العلاقات أيضًا[1].

ومهما يكن من تأثير العوامل الخارجية نتيجة لتزاوج الحضارات وتمازجها فالواقع أن العوامل الخارجية لنشأة الفكر الإسلامي لم تمح قط جوهـــر وأصالة هذا الفكر النابع من ذاته الإسلامية العظيمة. وما كان هـــذا التحدي الخارجي إلا ليزيد من إبراز جوهر هذا الفكر الإسلامي وقوته وأصالته الواضحة لكل باحث موضوعي منصف.

مـــن ناحية أخرى لا نستطيع أن ننكر أن نظرية تبادل الأسلحة وتـــبادل المواقف والأفكار لعبت دورًا محدودًا في نشأة هذا العلم فمثلاً نلاحـــظ[2] أن قومًـــا كالمعـــتزلة محاطين بأعداء كثيرين متدربين على

---

(١) العلم عند العرب تأليف الدومييلي ترجمة ابن عمي الدكتور عبد الحليم النجار -رحمه الله- رحمة واسعة، ص١٢٣.

(٢) نيبرج في مقدمته لكتاب الانتصار للخياط ص٢.

وهـــناك مـــن يـــرى أن المعـــتزلة هم أول من بدأ بتعمق وتبحر في علم الكلام مثل الشهرســـتاني في الملـــل والـــنحل حيث يقول: "طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب

المـــناظرة.. لأن مـــن نازل عددًا عظيمًا فهو مربوط به، مقيد بشروط القـــتال وتقلـــب أحواله، ويلزم أن يلاحق عدوه في حركاته وسكناته وقـــيامه وقعوده، وربما تؤثر فيه روح العدو وحيله، كذلك في ساحة النضـــال الفكـــري للعدو تأثير في تكوين الأفكار ليس بأقل من تأثير الحليف.

ثم هـــناك مسألة أخرى على جانب كبير من الأهمية وهي مسألة الشـــبه على الإسلام من أهل الأديان الأخرى فيمن دخلوا في الإسلام ولا زالت في صدورهم لوثات غريبة تجاه الدين الحنيف وكان لا بد أن يتصـــدى لأمـــثال هؤلاء من يبين لهم وجه الحق والحقيقة. ويدافع عن الإســـلام وينافح عن عقائده بالمعقول والمنقول فكان متكلموا الإسلام هـــم حراسُ العقيدة.ضد التيارات الخارجية والمناوئة للإسلام سواء من الداخل أو الخارج ذلك أنه كان قد التحق بالإسلام أناسٌ من كل ملة دخلوهُ حاملين لما كان عندهم، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه، فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن.

فكان لا بد من مبارزة فكرية ليبين العقل حججه الواضحة فكما أشـــرنا من قبل أنه دخل في الإسلام من أهل الأديان المعروقة قبله أناس لم تنزع من صدورهم تعاليمهم ومعتقداتهم، ولاصقت نفوسهم لوثات جاهلة وثنية، فكان من الطبيعي أن يوردوا شبهًا على الإسلام في الخالق والمعـــاد وحشر الأرواح والقدر وغير ذك، فانبرى لهم أناس من العلماء

الفلاســـفة حيث نشرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردها فنًا من فنون العلم، باسم الكلام"، الملل والنحل القسم الأول ص٣٦، تحقيق فتح الله بدران.

يـــردون ما أوردوهُ[١] على الدين من الشبهات ويتعرفونَ إلى معتقداتهم فـــيقاتلونَ أهواءهـــم بسلاح اتخذوه من نوع سلاحهم، ويستعملونَ عقولهـــم في إدحـــاض كـــل بدعة جامعين في حجاجهم بين المعقول والمـــنقول، فكان من ذلك علم جديد في أواخر السنة الأولى سموه علم الكلام[٢].

ومعـــنى ذلـــك بوضوح أنه كان لا بد من علم الكلام لتحديد العقيدة أمام أصحاب الرواسب الاعتقادية السابقة وليكشف لهم بالعقل والنقل عن جوهر التوحيد وقواعد أصول الدين.

ثم كان هناك أمر آخر أن الإسلام دخل بلادًا بها عقائد ومذاهب مختلفة يهودية ونصرانية ومجوسية.

فكـــان لا بد له من علم يجلي عقيدة التوحيد الصحيحة.. أمام غـــزو فكري يهودي عنيف تسللت بعضُ إسرائيلياته وتشبيهاته لبعض الفرق الإسلامية الغالية بل إننا نجد أن بعض كتب التفسير قد امتلأت بالإســـرائيليات وقد كان أثر الفكر اليهودي واضحًا لدى غلاة الشيعة بـــالذات القائلين بالرجعة[٣] وكذا اليهود يقولون برجعة عزير وهارون

---

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص١٥.

(٢) الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على جـــ٢٢، ص١٨.

(٣) لعـــل السبيئة أو القائلين برجعة الإمام علي بن أبي طالب مثل على ذلك كما أن ابن كـــثير يذهب إلى أن عبد الله بن سبأ كان يقول برجعة رسول الله ﷺ (البداية والنهاية لابـــن كـــثير جـــ٧ ص١٦٨، كما أن عبد الله بن سبأ اليهودي أول القائلين بعقيدة المهدي وأن المهدية ستتحقق برجعة علي كمهدي في آخر الزمان. المهدية في الإسلام للأستاذ/ سعد محمد حسن ص٩٣.

وإن كـــنا نرى من زاوية أخرى أن مسألة رجعة علي وقيامه بمعجزات تشبه إلى حد كبير معجزات المسيح عيسى عليه السلام لها أثر مسيحي بالإضافة إلى الأثر اليهودي.

ويـــبين الإمام الأشعري مدى تأثير الروافض في رجعة الأموات بالأثر اليهودي فيقول: (اختلفت الروافض في رجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة وهم فرقتان: فالفرقة الأولى منهم: يزعمونَ أن الأموات يـــرجعونَ إلى الدنيا قبل يوم الحساب وهذا قول الأكثر منهم، وزعموا أنه لم يكن في بني إسرائيل شيء إلا ويكون في هذه الأمة مثله، وإن الله ســـبحانه قـــد أحـــيا قومًا من بني إسرائيل بعد الموت، فكذلك يحيي الأموات في هذه الأمة ويردهم إلى الدنيا قبل يوم القيامة.

والفـــرقة الثانية منهم، وهم أهل الغلوّ: ينكرون القيامة والآخرة، ويقولـــون: ليس قيامة، ولا آخرة، وإنما هي أرواح تناسخ في الصور، فمـــن كان محسنًا جوزي بأن ينقل روحه إلى جسد لا يلحقه فيه ضرر ولا ألم ومـــن كـــان مسيئًا جوزي بأن ينقل روحه إلى أجساد يلحق الروح في كونه فيها الضرر والألم، وليس شيء غير ذلك، وإن الدنيا لا تزال أبدًا هكذا[1].

---

(١) مقالات الأشعري، ص١١٤.

يقـــول مولانـــا الشـــيخ محمد أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفســـير، ص٣٢، ٣٣. "كـــان مـــن أثر اتساع الإسلام دخول كثير من أبناء الأمم المغلوبـــة فـــيه، ومـــنهم الفارسي، ومنهم الرومي، ومنهم المصري، ومنهم المخلص للإسلام، ومنهم المنافق الذي يكن في نفسه الحقد على الإسلام ويتظاهر بحبه، ومنهم

وأثـــر اليهودي عبد الله بن سبأ لدى غلاة الشيعة معروف لدى الموضوعيين من الباحثين.

الـــزنديق الـــذي يسعى بشتى الوسائل لإفساده وتشكيك الناس فيه، ومنهم اليهودي الذي لا يزال مشدودًا إلى يهوديته، ومنهم النصراني الذي لا يزال يحن إلى نصرانيته.

وقـــد انـــتهز أعـــداء الإسلام من المنافقين، والزنادقة، واليهود سماحة الحَيِيِّ عثمان بن عفـــان -رضـــي الله عنه- ودمائة خلقه، فبذروا البذور الأولى للفتنة، فكان ابن سبأ اليهودي الخبيث يطوف في الأقاليم، ويؤلب الناس عليه، وقد أخفى هذه السموم التي كـــان ينفثها تحت ستار التشيع وحب سيدنا علي، وآل البيت الكرام فصار يزعم أن علـــيًا -رضـــي الله عنه- هو وصي النبي، والأحق بالخلافة حتى من أبي بكر، وعمر -رضي الله عنهما-، ووضع على النبي ﷺ حديثًا: (لكل نبي وصي، ووصيي علي) لم يقـــف الأمر عند حد هذه الدعوة بل ادعى ألوهيته وقد طارده سيدنا عثمان. فهرب فـــلمّا كان عهد سيدنا على طارده وأحل دمه. فما كان ليرضى بهذه الدعوات الخبيثة التي يشنها هذا المغيظ المحنق على الإسلام والمسلمين.

ومـــما يؤســـف له: أن دعوته وجدت آذانًا صاغية من بعض الأمة وبخاصة أهل مصر، وقـــد نجـــح هـــذا اليهودي في إثارة الفتنة التي أطاحت برأس الخليفة الثالث عثمان -رضي الله عنه- وما أن تولى الخلافة سيدنا علي حتى وجد التركة مثقلة بالخلافات، فقـــد ناصـــبه أنصار عثمان العداوة.من أول يوم واستفحلت الفتنة، ووقعت حروب طاحـــنة، فـــني فيها كثيرون من خيرة المسلمين، وظهرت طائفة أخرى وهم الخوارج الذيـــن لم يرتضوا التحكيم بين علي ومعاوية وكانت النهاية: أن أطاحت الفتنة ركنًا آخـــر مـــن أركـــان الإسلام، وهو الخليفة الرابع، وأضحت الأمة الإسلامية في فرقة واخـــتلاف، ودب إليها داء الأمم قبلها، وتمخضت الفتنة عن شيعة ينتصرون لمعاوية وبـــني أمـــية وقـــد اســـتباحَ بعضُ هؤلاء لأنفسهم أن يؤيدوا أهواءهم ومذاهبهم بما يقويها، وليس ذلك إلا في الحديث بأنواعه من أحكام وتفسير وسير، وغيرها.

وطائفة الغرابية من غلاة الشيعة —متأثرونَ بكراهية اليهود لجبريل عليه السلام ولهذا فإن الغرابية تزعم أن جبريل غلط في طريقه فذهب إلى محمد لأنه كان يشبهه: وقالوا كان أشبه من الغراب بالغراب[١]. وزعموا أن عليًا كان الرسول وأولاده من بعده رسل. هذه الطائفة تقول لأتباعها (العنوا صاحب الريش) يعنونَ جبريل عليه السلام[٢].

واليهود مشبهة وكذا الهشامية من غلاة الشيعة[٣].

---

(١) فَنَّدَ ابن حزم هذا الادعاء في الفصل جـ٤ ص١٤٠ حيث قال: (أن يقع شبه ابن أربعين سنة من صبي ابن إحدى عشرة سنة حتى يغلط به جبريل عليه السلام، ثم محمد ﷺ فوق الربعة إلى طول قويم القناة كث اللحية أدعج العينين ممتلئ الساقين ﷺ قليل شعر الجسد أفرع، وعلى دون الربعة إلى القصر منكب شديد الانكباب كأنه كسر ثم جبر، عظيم اللحية، قد ملئت صدره من منكب إلى منكب إذا التحى، ثقيل العينين، دقيق الساقين، أصلع عظيم الصلع ليس في رأسه شعر إلا في مؤخره يسير، كثير شعر اللحية.

ثم لو جاز أن يغلط جبريل وحاشا لروح القدس الأمين، كيف غفل الله -عز وجل- عن تقويمه وتنبيهه وتركه على غلطه ثلاثًا وعشرين سنة.

ثم أظرف من هذا كله: من أخبرهم بهذا الخبر ومن خرفهم بهذه الخرافة، وهذا لا يعرفه إلا من شاهد أمر الله تعالى لجبريل عليه السلام، ثم شاهدَ خلافه فعلى هؤلاء لعنة الله ولعنةُ اللاعنين ولعنة الناس أجمعين ما دام الله في عالمه خلق.

(٢) مختصر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي باختصار الرسعني. تحقيق فيليب حتى ص ١٥٧.

(٣) والهشامية: "فريقان أصحاب ابن الحكم الرافعي وأصحاب هاشم ابن سالم الجواليقي، والفريقان جميعًا يدينون بالتشبيه والتجسيم، وإثبات الحد والنهاية. حتى قال هشام ابن الحكم: أنه نور يتلألأ كقطعة من السبيكة الصافية، أو كلؤلؤة بيضاء.

فـإنهم أفصـحوا عـن التشبيه بما هو كفر محض باتفاق جميع المسلمين، وهم الأصل في التشبيه وإنما أخذوا تشبيههم من اليهود حين نسـبوا إلـيه الولـد، وقالوا: (عزير بن الله) أثبتوا له المكان، والحد، والنهاية، والمجيء، والذهاب، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا[١].

يقـول الإسـفراييني: «اعلم أن جميع اليهود في أصول التوحيد فريقان، فريق منهم المشبهة وهم الأصل في التشبيه، وكل من قال قولاً في دولة الإسلام بشيء من التشبيه فقد نسج على منوالهم»[٢].

أمَّـا عـن أهم المسائل التي أثرت فيها المسيحية في علم الكلام الإسلامي فلعل أبرزها كما يرى الدكتور حسام الألوسي[٣].

مسألة البحث في قدم الصفات أو حدوثها عند متكلمينا ومحاولة القول بأنها هي ذاته كرد فعل على فكرة الأقانيم. بينما تظهر فكرة قدم الصفات التي هي ليست نفس الذات كبديل وشبيه لفكرة الأقانيم.

وفي قـول المرجـئة بأن للعَذَاب والنار في الآخرة نهاية، أن هذا القول هو قول آباء الكنيسة الشرعية وكان يقول به أوريجيون، وتيودور

والجواليقي يقول: بالصورة اللحم والدم واليد والرجل والأنف والأذن والعين وإثبات القلب، والعقل بأول وهلة يعلم أن من كانت هذه مقالته لم يكن له في الإسلام حظ. التبصير في الدين، للإسفراييني، ص٤٠،٣٩.

(١) المرجع السابق ص٤١.

(٢) التبصير في الدين للإسفراييني ص١٣٣.

(٣) في بحثه عن نشأة الفكر الإسلامي في بواكيره الكلامية، مجلة عالم الفكر الكويتية المجلد السادس- العدد الثاني ١٩٧٥م، ص١٨٩،١٨٨.

الطرسوي، وتيودور المصيص، وهذا قول يعارض رأي الكنيسة الغربية التي ترى خلود عذاب النار.

ولا يستطيع الباحث أن يغفل هذا التشابه بين فكرة الغلاة عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وبين المسيح كما نجده عند المسيحيين فإن فكرة ألوهية علي ورجعته وقيامه بمعجزات تشبه معجزات المسيح وفكرة المهدي لأن تكون ذات أثر مسيحي إلى جانب الآثار الأخرى. بالإضافة إلى تأثير المسيحية في التصوف. خصوصًا فكرة الحب حيث يرى جولد زيهر أن الرجعة أصلها يهودي مسيحي مشترك. بالإضافة إلى تأثير المسيحية في التصوف خصوصًا في فكرة الحب.

وكذلك يعزو البعض مثل آدم ميتز التشبيه عن بعض المشبهة، والحلولية إلى التأثير المسيحي: وكذلك فعل مؤرخونا القدامى كما نجد ذلك في معظم كتب الفرق.

والذي نريد أن نؤكده أن بصمات الأثر اليهودي أو المسيحي لدى الفرق الإسلامية لم تظهر إلا في فكر الغلاة والمتطرفين من أصحاب هذه الفرق. أمَّا سائر الفرق الإسلامية المعتدلة فلا نجد آثارًا تذكر في أفكارهم يرجع مردها لتأثير يهودي أو مسيحي.

يقول الدكتور التفتازاني: ونتيجة لذلك الخلاف الواضح بين عقائد الإسلام وعقائد الأديان السماوية الأخرى، ولما أظهره بعضُ المسلمين الذي سبق انتماؤهم إلى تلك الديانات من شبهات، كان لا بد للمسلمين من الدفاع عن العقائد الإسلامية، والدخول في صراع عقائدي مع اليهود والنصارى. وطبعي أن يحاولَ كل فريق عندئذ أن يظهر على الفريق الآخر بالحجة.

وهـــنا ظهـــرت حاجة المسلمين منذ أواخر العصر الأموي إلى الاطلاع على المنطق اليوناني للاستعانة به في الرد على اليهود والنصارى الذيـــن كانت ثقافتهم فلسفية يونانية فكان ذلك كله من الأسباب التي دعت إلى وجود علم الكلام[١].

وإذا انتقلنا إلى أثر الفرس في نشأة الفكر الكلامي والفلسفي لدى المسلمين نلاحظ أن المسلمين حينما فتحوا بلاد الفرس واختلطوا بأهلها وجـــدوا بها فكرًا وثنيًا وحضارة وثنية واضحة ومن المعلوم عن الفكر الإسلامي الصحيح يرفض ما لا يناسبه ولا يتناسب مع عقيدة التوحيد.

ولقـــد أثر الفكر الغنوصي الفارسي[٢] لدى الزنادقة وغلاة فرق الشـــيعة والقرامطة والباطنية لدرجة أن المهدي طارد أتباع هذه الفرق

---

(١) علم الكلام وبعض مشكلاته، للدكتور: التفتازاني، ص٢٢.

(٢) يقول الدكتور علي مصطفى الغرابي في كتابه "تاريخ الفرق الإسلامية": عرف الفرس فلســـفة اليونان من عهد كسرى أنو شروان (ملك فارس من سنة ٥٣١هـــ-٥٧٩م) الذي أسس في "جند يسابور" معهدًا للدراسات الفلسفية والطبية، وكان أساتذة هذا المعهد من المسيحيين النسطوريين.

ولقـــد كان "أنو شروان": ذا ثقافة واسعة ولهذا شمل تسامحه الديني النساطرة واليعاقبة مع مخالفتهم إياه في عقيدة الوثنية.

وكذلك حين أغلق جوستنيان مدرسة "أثينا" في سنة ٥٢٩م جاء إلى بلاد الفرس سبعة مـــن فلاسفة ا لمذهب الأفلاطوني الجديد فآواهم "أنو شروان" وأكرم وفادتهم إلى أن رجعـــوا إلى بلادهـــم في سنة ٥٤٩م. ولما جاء المسلمونَ إلى الفرس واختلطوا بأهلها ونقلـــوا معارف الفرس إلى لغتهم وكان من بينها هذه الفلسفة، تأثروا بها كذلك كما تأثر بها من قبلهم منه الأمم القديمة. "تاريخ الفرق الإسلامية" للدكتور الغرابي ص١٤٣

في كـــل مكـــان ولعل الفكر الغنوصي كان أحد الأسباب لاستخدام أسلوب التأويل الغريب والمتطرف لدى بعض فرق الغلاة والجماعات التي تدعي أحيانًا تأويلاً باطنيًا وتأملاً باطنيًا وذوقًا غنوصيًا صرفًا.

يقول الدكتور التفتازاني —رحمه الله—:

«وكما كان هناك صراع بين عقائد الإسلام وعقائد أهل الكتاب مـــن اليهود والنصارى، فقد كان هناك كذلك صراع بين تلك العقائد وعقـــائد الفـــرس الوثنية فقد كان للفرس قبل الفتح الإسلامي ديانات خاصة، كما كانت لهم حضارة معروفة، ولما استفحل أمرهم في الدولة العباسية، فاعتمد بعضُ الخلفاء العباسيين عليهم، نجد بعضهم وقد أعلن أراء إلحادية، تظهرنا على أنهم قد أسلموا دون أن يتخلصوا من ديانتهم القديمة وعاداتهم الموروثة، كما تظهرنا على أنهم قد أرادوا بنشرها كيدًا للإســـلام، نتيجة حقدهم على زوال ما كان لهم من مجد سالف، وقد كـــان من هؤلاء من دان قبل إسلامه بالمجوسية والمانوية والزرادشتية، وهـــي ديانـــات شرك ووثنية، فكان لا بد أن تنهض طائفة من علماء المسلمين من ذوي الخبرة بالمنطق وبراهينه للرد عليهم، وهذا هو ما فعله المعتزلة من المتكلمين الذين كانت بينهم وبين المجوس محاورات معروفة، فـــأدى هذا كله إلى إرساء قواعد علم الكلام، كما أظهر وجه الحاجة إليه عند المسلمين بوضوح»[1].

---

(١) أبو الوفا التفتازاني، علم الكلام وبعض مشكلاته، ص٢٣،٢٢.